كفاك ألما

عبد الرحمن امنيصير

قصص قصيرة

الإهداء

لا تدعها إلى قاربي الأخير الذي تاه في بحر الحياة،
تمزق شراعك وتحطم مجذافك، تحكم في دفّتك
جيّدا وابحر ما استطعت الإبحار!

المقدمة

تترنح الحياة بين ليلة وضحاها، لا ضوء شحيح ينسل من ثقب جدارٍ حزين، ولا نعوش تستوي على الأرض؛ لنرتديها ونذهب بها موتى إلى مرقدنا الأخير.

نقاد عميًا إلى مقصلة الصمت، مكبلين بهراء قديم، نجر كعبيد يساقون لغيهب مجهول، علينا السمع والطاعة فلا مكان للثائرين هنا، نحملق في القضبان مستندين على الجدار بأجنحة مبتورة، وقد عُلّقت صحيفة من السقف كُتِبَ عليها:

"موتوا مع أحلامكم"

سيعود يومًا

باعَدَت بَينَهُما الأَيام، سَنواتٌ تَلاشَت من عُمرها وَهيَ تَتَرَقَّبُ مَوعِدَ عَودَتِهِ البَعيدَة .. صارَت تَتَأَمَّلُ زَرعَةَ الفُلِّ في شُرفَةِ بَيتِها .. عودُ حَطَبٍ جافٍّ خَشِن. تَلمِسُهُ بِحَذَرٍ خائِفَةً عَلَيهِ مِنَ الإِنثِناء أَوِ الإِنكِسار. تَبتَعِدُ عَنِ (الفُلَّةِ) تَعيسةً مُحبَطَةً، وَتُؤَكِّدُ لأُمِّها أَنَّها قَد ماتَت وَلَن تَنبُتَ في هذا المَوسِم.

تَضحَكُ أُمُّها بِثِقَةِ السَّنَواتِ الطِّوال، تُرَبِّتُ بِأَصابِعِها على الفُروعِ المُجَعَّدَةِ بِلَونِ الجَفاف، وَتُخبِرُ ابنَتَها أَنَّها سَتَطرَحُ في الرَّبيعِ كَالعادَة، تَتَعَهَّدُ أَنَّها مَعًا بالماءِ والغِذاءِ والحُبِّ أَيّامًا وأَيّاما، تُراقِبانِ الحَطَبَ وَهُوَ يَلينُ، لِتَشُقَّ البَراعِمُ الخَضراءُ الصَّغيرَةُ عودَه.

سُبحانَ الله _ قالت الأُمّ _ قِطعَةُ الخَشَبِ تَحَوَّلَت إِلى بِساطٍ تَتَقافَزُ فيهِ بَراعِمُ نديَّةٌ جَميلَة، مِثلَ صِغارٍ فَتَحوا عُيونَهُم عَلى العالَمِ الرَّحبِ لأَوَّلِ مَرَّة، بِبُطءٍ وَتَأَنٍّ وَدَلالٍ تَكبُرُ البَراعِم، وَتَتَفَتَّحُ عَن زُهورٍ بَيضاءَ تَزهو بِنَفسِها فَرِحَةً .. تُعَطِّرُ المَكانَ، وَتُبهِي الهَواءَ وَتُنعِشَه.

أَتى الرَّبيعُ إِذَن. زارَ زَهرَتَها في مَوعِدِه. احتَضَنَها دَفئًا بِاللَّيلِ وَنورًا بِالنَّهار، فَتَفَجَّرَت في جِذعِها العَجوزِ اليابِسِ بَراكينَ الحَياة لتنبَت بَراعِمَ وَزُهورا.

تَستَرجِعُ الأُمُّ حَياتَها وَتَسرَحُ في السَّنَواتِ وَالمَواسِم، شِتاءٌ طَويلٌ وَخَريفٌ أَطوَل لا يَقطَعهُما رَبيعٌ قَصير تَفتَحُ في كُلِّ صَباحٍ نَوافِذَها لِدِفءِ الشَّمس، فَلا تَرى مِنها غَيرَ السُّحُبِ الرَّماديَّةِ وَالضَّبابِ الكَثيف، تَدخُلُ مَعَها أَنّاتُ صَوت الرِّياح الّتي تَعِبَت مِن طولِ السَّفَر. مَتى يأتي رَبيعُها؟ مَتى يَزرَعُ جَسَدَها بِزُهورِ الحَياة؟ وَيَتَحَوَّلُ قَلبُها مِن قِطعَةِ خَشَبٍ جافَّةٍ إِلى وَردَةٍ حَمراءَ أَو بُستانٍ أَخضَر؟!

نسيج العنكبوت

تفتح نافذتها كلّ صباح، ترقب بزوغ الشمس، لتفترش قلب السّماء تتسلّل خيوطها الذّهبيّة، وأشعتها الحانية إلى حجرتها فتشعرها بدفء الرّوح ..تُذكّرها بالهمسات والكلمات الدّافئة؛ وعدها بقصرٍ غالٍ من أضواء النّجم العالي يليق بأحلى الصّبايا ليعيشا في جزيرة أبعد من الخيال، لا رأتها عينٌ ولا خطرت ببال.

كانت تغفو بين طيّات تلك الكلمات، تسافر بحلمها إلى البعيد، تحلم بأغاني وقصائد الشّعراء، انتظرت ولم تملّ الانتظار فلربما صدَقت الأحلام والوعود والكلام، مسافرة على جناح الحلم سنواتٌ طويلةٌ تسَرّبت من بين يديها لكن لا خُطوة واحدة يخطوها في طريق تحقيق الأحلام. لم يشترِ خاتمًا من ذهبٍ أو فضّة، ولا حتى مرآةً تشاهدُ فيها جمالها وحُسنَها!

حاصَرته بأسئلتها: كيف، ولماذا، وأين.. متى نبدأ؟ كيف نصلُ ونحن واقفون على الشُّرُفاتِ والطُّرقات .. في مكاننا؟ لماذا لا نحدّد الأولويّات والمواعيد؟ إلى أينَ سَتذهبُ بنا الأيّام؟ أينطفئُ هذا النّور وتزولُ المحبّة، وتَضمَحِلُّ الأمانيُّ، ويُذري الهواءُ كُلَّ ما نقولُهُ، ويُخفي الظّلُّ كلَّ ما نفعلُه؟ أهكذا يكونُ مثلَ زبَدِ البحرِ يطفو دقيقةً على وجه الماءِ ثمَّ تَمُرُّ نُسَيماتُ الهواءِ فَتُطْفِئُهُ ويصبِح كأنّهُ لم يَكُن؟ إجابتُه غير منطقيةٍ يختلط فيها الجدُّ بالهزل، الواقعُ بالأمل، مجرد علاقة هشة كنسيج العنكبوت لم تَعُد قادرةً على المُضِيِّ قُدُمًا معه في طريقٍ لا نهايةَ له، حيث تتحوّل الوعودُ إلى أكاذيبَ ..الأحلامُ إلى أوهام!

انكسر موج البحر معانقًا الشفق، ومالت الشمس للغروبِ واللون الأحمر قام يسجد في طرف محرابها فشعرت ببرد الرّوح أغلقت نافذتها، حضنت ذاكرتَها والآهاتُ فيها تطحَنُ الصخرَ تُذيبُ الجَليد.

لم يكن طفلًا!

بعدَ قدومِ مولودِه الأوَّل، رُسِمت ابتسامةٌ كبيرةٌ في ثغرِه، لم يسعهُ التّعبيرُ عن الفرحِ الذي يختلج صدره، كانت تلك الفرحة أكبر من الكلمات وأقوى من الاتبسامة،بينما يجلس في قاعةِ الانتظارِ ينهش التوتر عقله ويرديه جثةً للأفكار السيئة، تتزاحم المشاعر داخله إلا أن الحماسة طغت لمقابلة ابنه وزوجته وغمرهما بحضنه الدّافئ.

ماهي إلا لحظات حتى صدم بخبرٍ أثقل كاهله وحقق تخيلاته، أخبره الطبيب أن ولده مصابٌ بتملازمة داون! صدمة احتلت ملامحه، تسمر في مكانه لا يقوى على الحراك، تلاها حزنٌ وصراخاتٌ مكتومة بداخلهِ، شرع الطبيبُ بتهدئتهِ وتبليغه أنّ هذا قضاء اللهِ، عليه الرِّضا بهِ مهما كانَ لأن الخير في ما أراده الله.

بعد انتظار مضن التهمته فيها نيران الغضب بإمكانهِ الآن الدخولُ لرؤيتهما، تردد قليلا ثم دفع قدماه اللتان أحس بأن سلسلة حديدية تربطهما،تكنّسَ الغرفةَ وعيناهُ تفيضُ دموعًا تنهمر كمدرار من السماء تأبى التوقف، جلسَ بجانبِ زوجتهِ وأمسكَ طفلهُ يرمقه بنظرات النكران، اعتلى محياه حزن شديد، ترك الطفلَ في أحضانِ والدتهِ، وخرج يواري شجنه المتأجج في قلبه،انصرمت أيما عديدة لزمَ عليهمَا تسميتهُ لكنهُ لم يبد رغبةً بذلكَ، كمن وصل للمكان عندما أصبح لا يهمه، تارةً يتشاجرُ مع زوجتهِ و يقولُ: لنرمهِ في المسجد وننجبُ طفلاً آخرَ، بينما زوجتهُ يكادُ ينفطرُ قلبها خوفاً على فلذةِ كبدها فتقولُ: إن لم تتوقف عن التفوه بهذه الكلمات القاسية التافهة فسأهجرك وأعودُ لبيتِ أهلي، أين إنسانيتك يا رجل؟ وقبلَ أن يسودَ الصمتُ الكئيب البيتَ يردُّ عليها: لنسمه العاهة!

قرّرَت زوجتهُ أن تسميهِ "محمد" على اسمِ والدها أي على اسمِ جدّه، انقضت أيّامٌ أخرى تعلّم فيها محمدٌ بعضَ الكلماتِ "بابا و ماما" و لطالما كانتْ والدته تستبشرُ به الخيرَ في المستقبلِ، أما والده الأناني كان يهرب من ولده كمن يهرب من فضيحة أو عار، يفضل أن يرمي نفسه في حقل من الألغام على الاعتراف به، فكيف يمكن أن ينجب طفلًا آفة من نسله العظيم؟! إثر عامينِ من طفليهما الأولِّ حبلتْ الأمُّ بطفلٍ آخر وأثناء الكشفِ عليهِ، ظهرَ أنَّهُ ولدٌ مباشرة بعد تسعةِ أشهرِ حملٍ وشجارٍ مستمرٍّ معَ زوجها العنيد، أتى يومُ العمليةِ التي كانَ ينتظرها بفارغ الصبرِ، يتوق له توق الطير المسجون للحرية ومداعبة نسمات الهواء العليلة لجناحيه، توق الظمآن للماء، يتوق الجوعان للأكل، تركًا "محمد"في بيتِ جدّه واتجها صوبَ المشفى، كالمرّة السابقةِ يجلسُ بانتظار الطبيبِ لا يأبه لكل من يمر أمامه فقط صوت نبضات قلبه من كانت تدوي في أذنه؛ تتسارع كلما مرّ أحد يرتدي مئزرًا أبيضًا قبالته، حتّى لمح الطبيب قادمًا إليه نبضات قلبه تتزايد تدريجيا مع سرعة تدفق دمه، فجأة هدأت أعصابه بعد أن ابتسم وبشره أنَّ ولدهُ صحيحٌ معافا و يمكنهُ رؤيتهُ،عمَّ الفرحُ قلبهُ ونُقشت على وجنتيهِ ضحكةٌ تبعثُ بالأملِ و تشعُّ بالحماسةِ، ضحكة افتقدها منذ زمن! فتحَ البابَ مسرعا بخطوتهِ ليضمَّ طفلهُ الثاني، كأنهُ شخصٌ آخرُ تغيّرَت مشاعرهُ تماما، ربما يترك الشيطان البداية للملائكة بينما يسكن هو كل نهاية.

انقضَتْ سنينُ من عمرهم، كانَ الزوجُ من اطلقَ الاسم على الطّفلِ الثّاني "علي" سيكون الولدَ المثاليَّ، في حينِ دخلَ محمدٌ المدرسةَ الإبتدائية لمتلازمة داون كان وحيدا كئيبا، لكنه لم يذرف دمعة واحدة! إن ألمه أكبر من أن تكفيه الدموع، ولو بكى العالم أجمع لن يصلوا مقدار شعرة من العبرات التي يخبئها.

كَبُرَ الولدَانِ ومعاملةُ الأَب يحذوها التمييزُ بينهما، القاسيةُ ينالها محمد البريء، الجيّدة ينالها علي المتكبر، كان محمد سوداوي يجلس في زاوية غرفته المظلمة البائسة كبؤس قلبه، على خلاف غرفة أخيه الذي يتمناها أي طفل، تجلسُ بجانبهِ أمُّهُ وتواسيهِ لتمحوَ عنهُ هذَا الحزنَ وتحدّثهُ قائلةً: مؤكّدٌ من أنّ والدكَ يُحبّكَ لكنّهُ لا يجيدُ إظهارَ ذلكَ، هو فقط يدلل أخاك لأنه أصغر منك، لكنها لم تستطع إقناعهُ بهذا أبقَى فيهِ جرحًا لا يندمل، وجانباً كئيباً لطالما أظهرهُ للعلنِ بلا حول ولا قوة منه!

نفذت من بين يديه سنينُ طوَالٌ، صعبةٌ على محمدٍ يغمرها الحزنُ ويحيطها من كل جانب، في حين بدأ سفيانُ بعقوق والديهِ يصيحُ في وجهِ أبيهِ، يرفضُ أوامرهُ حتَّى إنّه في يومٍ كادَ أن يضربه! نقيض محمد الذي حاوَل رضاهما، ثمَّ ذات صباح توسطت فيه .جاهداً فعلَ ما يقدرُ عليهِ لينال الشمس كبد السماء وعلت فاردة أشعة نورها طلبَ الوالدُ من علي الذهابَ لمحلِّ البقالةِ، لم يكن بذلكَ البعدِ عن منزلهم فرفضَ ناهياً غاضباً وقال مزمجرًا: افسدت عليّ لُعبتي ها قد خسرتُ بسببكَ!

اضطر للذهاب لوحدهِ، عندما علمَ محمد بذلكَ ذهبَ لأمِّه محاولاً إقناعها بالمغادرةِ مع والدهِ، لكنها رفضَت ذلكَ بسببِ شعورٍ سيئٍ انتابها في تلكَ اللحظةِ، ومن لا يعرف إحساس الأم ! لكنها لم تستطع رفضَ طلبهِ، كانت نظراته كسقيم يرى الحياة من وراء نقاب الموت، تنظرُ إليهِ بشفقةٍ قائلة: حسناً لكن انتبه علىٰ نفسكَ يا بني!

بعدَ شراءِ المستلزماتِ توجّبَ عليهمَا قطعُ الشارعِ مجدداً، أمسك محمد بيد والده لكن الأب أفلت يده متابعا طريقه وكأن شيئًا لم يكن، نظر إليه الفتى نظرة، لو رآها والده لبكى! نظر محمد للسماء واختتفت كل الأصوات من حوله، كمن يودع عزيزا عليه لن يراه مرة أخرى، كان الوالدُ يقطعُ الشارعَ

بينما يتكلمُ في الهاتفِ دون مبالاة للسيارات المسرعة، بغتةً سيّارةٌ فاجأته آتية بسرعةِ البرقِ تخطفُ الأنفاس، انتبهَ عليها محمد حاولَ تنبيههُ دونَ جدوى، انتهى الأمر ستصدمهُ، اندفع الادرينالين في دم محمد فلم يجد نفسه سوى أنه يركض وراء والده و يدفعهُ بكلِّ قوّةٍ. ليسقطَ هاتفهُ فيتحطّم ويقولُ: ماذا تفعلُ أيُّها الشّقيُّ، استدار خلفه فتقطعت أنفاسه وتزايدت وتيرة نبضه أمام الفاجعة، البنزين والزيت ينسكبان من محرك السيارة، الزجاج الأمامي محطم، والسّائق غائب عن الوعي، محمد واقع في الأرض بلا أي حركة والدِّماءُ طلت المكان بصبغة من الحمرة، وقف الأب مكتوفُ الأيدي وهو يرى المنظرَ البشع، هلعَ مسرعاً إليهِ ليجدهُ يلفظُ أنفاسهُ الأخيرةَ يغمرهُ في حضنهِ يبكي بحرقة كما لم يبك من قبل قائلاً: و اللَّه إنّي أحُببتكَ يا بنيَّ فلا تتركني!

ابتسم محمد وقال : "بني؟ كم هي جميلة هذه الكلمة يا أبي، هل حقا تكلمني أنا؟ " وأغمض عينيه للأبد.

عندما وصل خبرُ وفاتهِ لأمهِ جزعَت بالنحيب والصراخ، اِنكفأت عيناها للداخل وبكت بكاءً مرًّا حتى تورمت عيناها، قائلة: آه يا صغيري، قد أحبّك وأنتَ لم تعرهُ الاهتمام، شرعت عيناهُ هو الآخرُ تذرفُ الدُّموع كأنها غيث منقطع النظير، أُجرِيت مراسمُ الدفنِ والعزاءِ ولا تزالُ ذكراهُ باقيةً يسودها الندم.

ذكرى وذكرى

أتعلمون أن والدي يكره سؤاله: ما بال ذراعك؟ فهي تعيده لذكرى لا يود استرجاعها، حيث الفرح يعم البيت، لا صوت يعلو فوق صوت الموسيقا والزّغاريد، يكتظّ بالنّساء الأفق الرّحب، المنزل مزدان بسرب من الأضواء الملوّنة، وتتراقص الفتيات والنسوة، ويقيم الرّجال حلقات الدّبكة ابتهاجًا، مع كثير من ألعاب الشباب النارية التي ترسم ورودًا مضيئة تتفتح في ليل السماء المظلم من بعيد. دق ناقوس الخطر لإقبال الليل وانتشار الظلمة وطلوع الكواكب أقبلت عساكر الليل، خفقت رايات الظلام، خلع الليل علينا فروته، وألبسنا الظلام بردته، أذكى الفلك مصابيحه، طفت النجوم في بحر الدجى. ازدحم البيت بالنّساء، فلم نجد موضع مضجع يأوي أجسادنا المنهارة، كي نهيم في نوم عميق فصيح جبال التّعب التي على كواهلنا، توقّع والدي هذا الموقف واستعدّ له جيّدًا، استعار من صديقه مزرعة ليست ببعيدة عنّا، انطلقنا بالسيّارة متجهين نحو غيهب مجهول في ليلة لا تُنسى، حافلة بالمفاجآت، ليلة من الليالي الباردة، لم يخلد القمر للنّوم، احتشدت فيها الغيوم الداكنة ملبدة في مسرح السماء، يكاد الظلام يحجب الطريق عن لحظ العيون، لولا ضوء شحيح ينسل من النجوم ترسله للأرض بعد أن وجد منفذًا بين الغمام، يندس أبي خلف المقود ويتشبث فيه كغريق يتشبث بالحياة، يحملق في الظلام وينعطف بالسيارة دون أدنى فكرة إلى أين تأخذنا الظلمات!

بغتة وعلى حين غرة، غرقت السّيارة في الرّمال، بلا أي تفكير وكردّ فعل داس والدي على البنزين ليخلف ستارًا من الأتربة ويزيد الطّين بلة، انتفض غضبًا وتطاير الشرر من حدقتيه الواسعتين، وأخذ يلوي بشاربه في محاولة لمواراة قلقه واسهابه في إيجاد حل للخروج من المأزق، أمرني بالتقاط أي

عصا أو خشبة لوضعها تحت العجلات والضغط للخروج، لكنها باءت بالفشل كسابقتها، شاع الصمت وساد السكون دلفنا السيارة وأنزلت الكرسي في تهيء للنّوم، فجاءة صوت لم تألفه أذناي من قبل، جلجلة أصوات مرعبة، صوت جعل أطرافي ترتعد وأسناني تصطك ببعضها، تمنيته حلمًا سرعان ما أستفيق منه، لكنه لم يكن سوى واقع مريرٍ وحقيقةً ماثلة أمام عيني، رغم انعدام الرؤية تقريبًا، ركبتاي تتخبط ببعضهما كأنهما تشعران بأنها آخر لحظات حياتي، عويل الذئاب يأزف رويدًا رويدًا، أحجم أبي المصابيح الأمامية للسيارة، هاجمنا قطيع الذئاب ولم تغادر لنا ملجأ ولا مهربًا، أبهمت النوافذ وأوصدت الأبواب، انقضّ أحدهم على الباب الذي من جهتي مسببًا صدعًا خلخل قفله، وكسر نافذته، تدفّق الأدرينالين بغزارة في عروقي مما جعلني في تأهب لفدية أبي، امتشق مسدسه من أسفل الكرسي وتردد صدى صوته في أذني: إياك ومغادرة السيارة مهما حصل.

أطبق الباب بقوة وباشر في إطلاق الرصاص وطرحهم أرضًا ذئبًا تلو الآخر، هرب جلهم خوفًا مما سيحل بهم، لكن ذئبًا أبى الهروب، انتصب أمام والدي في وقفة شجاعة لربما الجوع هو السبب فأحيانًا تأمرنا العقول بفعل الجنون لنبقى في هذه الحياة، نفدت الذخيرة دون سابق إنذار، استغل الذئب الفرصة وانقض على والدي انقضاض النّمر الكاسر غارزًا أنيابه في معصمه مقتلعًا إياه، لم أستطع الوقوف مكتوف اليدين، تناولت عصًا غليظة بكل لهفة وبسرعة البرق أحكمتُ قبضتيّ ورفعتها على امتداد طولي لتزداد قوتها، وضربتُ بها الذئب اللعين فانحدرت إلى نصفين، فإذ به يهاجمني في غضبه، انتشل أبي فأسًا من صندوق السّيارة في سرعة خاطفة تكاد تكون بسرعة الضوء، ضرب بها الذئب في عنقه مخترقًا طحاله، صاح الذئب صيحته الأخيرة، وصبغت دماءه الرّمال بصبغتها الحمراء، انهار والدي كجثة هامدة ومن هول الموقف أغمي علي، لحسن حظنا مرّ مزارع

في طريق عودته ليجدنا رقود على تلك الرّمال، قطرات النّدى تنساب برواق على أجسادنا، والبرد ينهش أجسامنا كجثة وقعت في يد سرب من النمل، انتشلنا ووضعنا في سيارته واتجه بنا للمشفى، استطاعوا إنقاذ والدي من موت محتم ربما لو تأخرنا قليلًا لانحال العرس إلى عزاء، اضمحل الظلام وأشرقت الشمس تنثر خيطوها الذهبية وأشعتها الحانية على جلودنا، أضحت الزغاريد نواحًا من الفاجعة، عدت مع أخي لاستعادة سيارتنا، وفي النهاية لا يبقى في الذاكرة إلا ما أردنا نسيانه.

طعنة أخيرة

اتجهت الشمس مسرعة إلى مرقدها، بعد أن طلت لوحة السماء بحمرة خجلها وانسحبت خيوطها الذهبية معلنةً عن قدوم مواكب الليل، ووفود النّجوم، استأذن خالد للذهاب إلى مناوبته الليلية في شركة الكهرباء، تاركًا زوجته سلمى وحدها كالعادة، لكن تلك الليلة لم تكن كأخواتها الأخريات، ليلة صبغها القدر بلون الدّماء وحفر عنوانها باسم "الموت"، كانت سلمى جالسة باسترخاء على الأريكة، تصع قدمًا فوق الأخرى تمدهما على الطاولة بينما تتقافز حبات الفشار بين أسنانها، تقلّب قناوات التلفاز بملل وترقب السّاعة من حين لآخر، تنتظر ضيفها المعهود، وفجأةً طرق الباب، تهللت أساريرها وشقّت الابتسامة وجهها، ركضت إلى المرآة تضع اللمسات الأخيرة بأدوات التجميل وتتمعّن في ملامحها الفاتنة، وتقول في نفسها "ألستُ أدهى وأجمل النّساء؟" راحت تفتح الباب لضيفها وعلى حين غِرّة طعنها في بطنها شخْصٌ ملثّم، وبينما تدارك جرحها تحاول جاهدةً دون جدوى إغلاق الباب، كان القاتل أقوى من يديها الهزيلتين، دفع الباب بقوةٍ جعلتها طريحة الأرض، كانت تبكي من الهلع لم يستطع دماغها الصّغير استيعاب الموقف، انقضّ عليها القاتل انقضاض النّمر الكاسر، كانت تترجّاه ألّا ينهي حياتها فهي مستعدة لتقديم ما يطلبه ثمن ذلك، لكن القاتل لم ينبس ببنة شفة، كان كمن أخرس صوته، أو قطع لسانه، يمسك بسكّينه الملطخ بالدّماء في حين يسهب النظر في طريدته، بعد هنيهة صمتٍ أطبقت على المنزل، كسر الحاجز وتحدّث أخيرًا كان صوته مألوفًا لكن حالة سلمى لم تسمح لها بالتّفكير:

- أوتظنين يا سلمى أنّ أفعالك ليس لها عواقب؟

كانت الدموع تنهمر من مقلتيها بغزارة، تمسح حقول المكياج وتحرق خدّها كما لم تفعل من قبل، في ظلّ ذلك ساورتها الحيرة أنّى له معرفة اسمها فأجابت في تلعثم:

- أقسم لك أنني لن أقترف خطأً مجددّا فقط اعفُ عنّي!

حرّك القاتل رأسه ذات اليمين وذات الشمال، قاصدًا بذلك الرّفض، ثمّ قبض على يده التي تمسك السّكين وقال بصوت كأنه هدير النهر في فيضانه:

- لستِ تدركين حقًّا معنى أن يحبكِ رجلٌ أليس كذلك؟ ألا تفهمين معنى أن يضحي المرء بكلّ ما يملك في سبيل نيل رضاك؟ أنا لا أفهم، أوزرع الشّر في قلبك مذ ولادتك، أم أنك من أوقد لهيبه؟

وضعت سلمى يدها على فمها محاولة كتم صرخة أحسّت أنها ستنطلق، وأدركت حينها أن القاتل زوجها، وما يفعله الآن هو انتقامٌ لخيانتها له مع صديقه، لم تسعفها الكلمات في التّعبير عن أسفها، تمنّت لو كان بإمكانها الرّجوع بالزّمن والهروب من المنزل عندما ادّعى أنه ذاهبٌ للعمل، لكنها تعلم في قرارة نفسها بأن ذلك ضربٌ من المستحيل وقد فات أوان ذلك، لكنها نبستْ:

- أنت لن تتغير ستجعل دائما الموضوع متعلّقا بك، وتنساني في قبوك المظلم.

كانت تلك الكلمات الأخيرة التي داعبت فاهها قبل أن يبتلع خالد غصته ويهديها طعنة الموت.

مغتصب بريء

قطبت السماء وجهها، وتلبدت فيها الغيوم، باشرت تسكب دموعها بغزارة. لبست الطبيعة معطفها كي لا تتجمد من البرد، الأشجار واجفة، تتراقص بخفة مع نغمات الريّاح، كان أول نسيم يشتمّه سفيان بعد فراق قضائه سنينًا في السجن نسى كيف يعدّها من فرط طولها، يقضيها بين أربع جدران حالكة، جدران تنكر ضوء الشمس ولا تعترف إلا بالظلمة، داخلها ليس هناك معنى للوقت لأن كله متشابه وحده الغريب! نجى من الموت بأعجوبة عدّة مرات كلما حصل شجار بين السجناء، كان يتمسك بذيول الأمل بينما تهترئ كفّته بطول الزمن، لم يكن مقتنعًا أن السّجن بإمكانه تغييره وما هي الإ استراحة قصيرة ليعوث في الأرض فسادًا، وذات يوم علم أحد السجناء سبب سجن سفيان، فاشتعل دمه نارًا موقدة وبرزت عروق يده كأرواق الخريف، وهاجمه غدرًا بينما كان يتناول غدائه، أطبق عليه بيده وراح يخنقه بكل ما أوتي من قوة بينما همس في أذنه:

- أوظننت أنني لن أعرف؟!

وغدا يكمل ما بدأه، لم يتدخل أي سجين أو حتى شرطي فقد كانوا يفعلون ذلك عن عمد فموتهم يعتبر راحةً للبلاد كما يجزمون، احمرّ وجه سفيان وكان يلتقط أنفاسه بصعوبة، رؤيته تتلاشى رويدًا رويدًا أحس أن هذه نهايته فاستسلم لمنجل الموت، بغتة ودون أن يدرك دخل هذا الصراع سجين ثالث يحاول إنقاذ سفيان، رغم أنه لم يفهم مغزى ما يفعله إلا أنه استغل الفرصة لفك قيوده والفرار، سئم رجال الشرطة من المشاهدة وتدخلوا مسرعين لفض النزاع، وُضع كل منهم في السجن الانفرادي عقب عدّة أيّام قضاها سفيان يبتغي فهم سبب إنقاذ الرّجل الغريب له، لكن

عقله احترق من التفكير ونهشت التساؤلات أعصابه فطرد هذه الأضغاث وهب للنوم آملا أن يتناسى فيأبى النوم أن يصالح مقلتيه ويطرق الأرق بابه قائلًا: "كيفما حاولت فالتفكير يطرق ذهنك، لذا ستجدني بجانبك" إثر خروجه من السجن الانفرادي وفي فترة الغداء، حينما تكثر الوجوه ويتعالى رنين الضحكات والهمزات، كان يبحث عن ذاك الرّجل، شعر بأن أنظارهم تلاحقه لتداهمه فجأة فحاول ألا يعطي ظهره لأحد بينما يبحث، وجده عند الزاوية يجلس على الطاولة المستديرة ويأكل حبات الأرز، يبدو من ملامحه أنه أربعيني إلا أن صحته لم تخنه فلا يزال بقوته كأنه في عز الشباب، وجهه مكوّر، عيناه واسعتان كعيون القطط، أنفه معقوف كمنقار الجوارح، أسرع الخُطى متجها إليه، جلس أمامه واستجمع رباطة جأشه، وقال:

- لم أكن أحتاج مساعدتك، وليكن في علمك أنا أعلم أنك أحد أولئك الذين يساعدون النّاس كي يصبحوا مدينين لهم..

قاطعه الرجّل بضحكته الخفيفة، ثم حدّق في وجهه لوهلات فسرت في جسمه رعشة من رأسه إلى أخمص قدميه لكنه تظاهر بالقوة والصّلابة، مسح الرجل بقايا الطعام على وجهه بِكُمّ قميصه وحمحم قليلًا فقال:

- هل أنت متأكد مما تقول؟! يبدو أنك تكاد تتبول في سروالك من الخوف!

كان سفيان يحملق في الفراغ عند سماعه هاته الكلمات، فقد قدرته على التّعبير بالكامل وعندما حاول خرج من فمه غير مفهومٍ كأنه طفل لا زال يتعلم الكلام، أنقذه الرّجل بحديثه حينما قال:

- لا تقلق لم أفعل ذلك إلا لأنك لا تستحقّ الموت، ما زلت يافعًا والحياة أمامك كما أنه عليك التكفير عن ذنبك بغض النظر عمّا هو!

صُدِم سفيان من القول الذي قلقل مسامعه، كأن عقله يرفضه ويطلب تحوير ما سمع، وضع الرجل يديه تحت ذقنه مطبقا عليهما واستطرد قائلاً:

- أوتدري؟! عندما كنت في مثل عمرك، لم أجد من يُوجّهني، من يرشدني، يخبرني أي مفترق طرق أسلك، هائم في التيه لا دليل لي، كنتُ طائشًا حتى انتهى بي الحال بسرقة فاشلة قتلت على إثرها امرأةً مع طفلها حين لاحقتني الشرطة، ولكن الحمد لله اهتديت إلى الطريق الصّحيح وأنا الآن في مسار التكفير عن ذنوبي، وأنت أيضًا عليك ذلك.

تركت هذه الكلمات صدًى قويّا يتردد في روح السّفيان، صدًى يلاحقه أينما حل، مضت الأزمان وشرع في التغيّر شيئًا فشيئًا حتى افرج عنه، كان يرقص بشرًا وحبورًا، يكاد قلبه يقفز فرحًا من بين أضلعه، الابتسامة لا تفارق ثغره، يلقي السلام حيثما يرتحل، إلى أن وصل شارعه القديم توشك أعين النّاس على القفز من مكانها وتهجم عليه، تحاشاه الجميع وسرعان ما انتلقت الأقاويل بين الجيران "مغتصب الأطفال قد عاد"، "الحقير قد رجع لا تتركوا أطفالكم وحدهم"، "كان من المفترض أن يتعفن في السجن" لم يستطع الحصول على وظيفة، أو دخول محل تجاري دون الاستماع إلى هذا الكلام، حاول جاهدًا تغيير نظرة النّاس القديمة عنه ويقنعهم أنه تغير لكن دون جدوى، وذات عشيّة بينما هو جالس في الحديقة على الكرسي الذي تظله شجرة الماغنوليا ذات الأوراق الزّهرية الجميلة، والأغصان الغليظة الممتدة، والفروع السامقة، يمسك ببعض بتلاتها المطرحة على الأرض تحسس ملمسها الناعم، في لحظة وجوم لبرهة قطعها طفل يبكي بحرقة والعبرة تخنقه، وعندما فهم منه السبب تبين أنه ضيع والده، نهض يبحث عنه في الأرجاء بنهم يصيح باسمه غاية لفت انتباهه حتى عثر عليه، هدأ الطّفل أخيرًا همّ الرجل بشكره لكن عندما أسهب في ملامحه وعرف

هويته، انهال بالضرب المبرح دون توقف مسببا نزيف أنفه وترك كدمات دنّست وجهه، لم بجرؤ أحد من العامة على تشتيت القتال، اكتفوا بالمشاهدة وإخراج هواتفهم والتّصوير، كي يلعنوا سفيان على مواقع التّواصل الاجتماعي، لم يتأكد أحد من براءته بل لم يخطر على بالهم أصلًا! أيقن في ذلك اليوم أن الناس لا تنسى وغايتهم شيء لا يُدرك، ضاق به الحال وسئم هذه الحياة تناول ورقة من مكتبه وجرح اصبعه جرحًا بسيطًا وكتب بدمائه:

"يؤلمني رغم تغيري كره النّاس، يؤلمني ضيق العالم في صدري رغم اتّساعه، يؤلمني أن يُختزل سفيان في غلطة واحدة"

حل الليل وأذاع عن سديمه الكثيف وهدوئه المخيف، جهّز سفيان الحبل وتأكد من كونه متينًا كي يتحمّل جثته، أحكم ربطه حول عنقه ثم قفز من على الكرسي، كان يمسك بالحبل بذراعيه بينما يختنق، وقدامه تتحركان للإمام والخلف كأنه يركض في اللامكان، إلى أن لفظ آخر أنفاسه وتدلى جسده في الفراغ.

صوت خفي

أقبلت عساكر الليل وغشي الظلام لحظ العيون، بزغ القمر في مسرح السّماء حيث اعتاد الجلوس مجاورًا لأصدقائه النّجوم، خرجت مسعودة عقب نوم زوجها الحاج سالم، كانت تسير على رؤوس أصابعها خوفًا من أن يسمعها الصغار أو توقض زوجها، تركت باب المنزل مفتوحًا قليلًا وثبتته بحجرة صغيرة يتوضأ بها الحاج، ارتدت فراشيتها وغمت بها وجهها كي لا يتعرف عليها أحد، واتجهت قاصدة البيت أعلى التّلة، البيت الذي تحوم حوله الشّائعات ولا يقربه مخلوق، فقد بدا مسكنًا للجن وكل ما هو ملعون ومسخوط، كانت تسير بخطى متثاقلة يواسي سراجها خطوائتها الوئيدة، بينما تدسّ في جيوبها ما يحصي لسانك من ذهب غال ونفيس، لم تخش أن يفتك بها حيوان أو مجرم الأهم أداء ما ذهبت إليه، عندما وصلت المنزل شرعت أسنانها تصطك، وقدماها الهزيلتان بالارتعاش انتصبت أمام الباب واقفة كأنها تريد العدول عن رأيها لكن صوتًا خفيّا في نفسها أمرها بالدخول، استجمعت ما يكفي من الشجاعة وطرقت الباب ثلاث مرّات، فتحت لها العجوز الباب وأشارت لها بسبابتها لتتبعها إلى حجرة مربعة معتمة، جدرانها كأنها من عصور غابرة تلاشى طلائها وعفى عنه الزمن، عندما تراها للوهلة الأولى تحسب نفسك داخل كابوس لا يمكنك الاستيفاق منه، كأنها كهف مظلم تقبع به الخفافيش، ستارها مسدل طول اليوم بمرور هزيل ضئيل من ضوء الشمس فهو يضايق ساكنة هذا المنزل، أما الكهرباء فقد استغنت عنها واستبدلتها بالوهج الخافت الذي يصدر من قناديلها، وضعت في منتصف الغرفة طاولة مدورة برونزية اللون، فوقها تمائم وقلائد ذهبية، وعلى الحائط تدلى رأس ثور قرونه تكاد تلامس جبهة الأرض، امتلأ جو الغرفة برائحة كريهة، رائحة البخور الذي اعتادت

التطيب به، جلست العجوز أمام موقد الفحم تمارس طقوسها المعتادة برمي بلورات الملح فيتصاعد صوت الطقطقة ويتناغم مع طقطقة رقبتها، شعرها منكوش أشعث خالطه البياض، عيناها غائرتان، وجهها منقوش بتجاعيد مترهلة، مقرونة الحاجبين، كأن الزمان نسيها في حفرة سحيقة فتراكمت عليها السنين بلا عدد محدد، دلفت مسعودة الغرفة فرائصها مرتعدة، تحاول الدفع بأقدامها للتحرك كأنها غرقت في رمال متحركة الخروج منها ضرب من الخيال، تتنفس بصعوبة بالغة كمثل الذي يتنفس من ثقب إبرة، تحاملت على نفسها بلع ريقها الذي استحال بيداء قاحلة، حدثها ذاك الصوت الخفي مجددًا يبث فيها العزيمة للحديث فقالت:

- أتعبني زوجي برفضه التام لكل ما أطلب، أود منك جعله كالعبد ينصاغ لي، أسوقه حيثما ما أشاء وكيفما أشاء! لا يعصي لي أمرًا ويكون كالخاتم الذي في يدي يلتف في أصبعي وعندما أمل أرميه في صندوق.

ابتسمت العجوز ابتسامة خبيثة وكشرت عن أنيابها وأردفت:

- هذا فقط؟! سهل جدًّا أريني صورته وأخبريني باسم أمه.

أرتها مسعودة صورة الحاج وجه مبتسم تقوس حاجباه تقوسًا خفيفًا، واتسعت عيناه وانفرجتا انفراجا طفيفًا، ثم أخرجت الذهب الذي أسال لعاب الساحرة وانتفخت به أوداجها، وشعرت كأنها وجدت كنزًا مرميّا في أعماق البحر، أعطتها قماشًا أسود اللون أشبه بجورب لا ترى منه شيئًا، وأمرتها بوضعه تحت فراشهما، همت بالمغادرة بينما كانت تمعن النظر في المنزل فحتى ممراته كانت موحشة ولا تمت بصلة للشعور بالأنس والطأمنينة، عادت لمنزلها ونزعت الحجارة جانبًا واستلقت في حضن الحاج وكأن شيئًا لم يحدث.

انصرمت أشهر عديدة تغيّر فيها اسم الحاج بين النّاس من سالم إلى ذيل مسعودة، بينما مسعودة لا زال ذاك الصّوت الخفيّ يحرّكها ويتلاعب بها كما تحرك القطط ذيولها، ذات مساءٍ توارى فيه القمر خلف الغيوم، ليلة حالكة كأنها جناح وطواط، كأنها لباس بني العباس، كره الحاج سالم تجبر وطغيان مسعودة وطفح به الكيل، فطفق يضربها في كل مكان دون توقف كانت تصيح بأعلى صوتها "ارحمني يا حاج والله لن أعصي لك أمرًا" لم يوقفه سوى بكاء أطفاله خوفًا على أمهم، تباعدت بينهما المسافة وخلد الحاج للنوم، تأكدت مسعودة من نوم الجميع وخرجت كالمرة الماضية ظانة أن السحر قد انتهت مدته كان صوتها الخفي هو من زرع هذه الفكرة في رأسها ولم تكن سوى بيدق ينفذ ما يُطلب منه، لكنها لم تعلم بأن الحاج سالم كان يتبعها فقد راودته الشكوك في الفترة الأخيرة واتقدت التساؤلات في ذهنه، حمل معه بندقيته وسار بخطى متريثة يتبع مسعودة دون أن تدري، وصلت لبيت التّلة فأدرك حينها ما كانت تكيده زوجته، وما كانت تحوكه في الخفاء، التهبت أعصابه وأمسى يرى الدنيا شعلةً حمراءً دفع الباب بضربة من رجله وصوب بندقيته نحوهم، حاولت الساحرة الفرار فأرداها قتيلة، في تلك اللحظة أدركت مسعودة أنه ما كان يجب عليها اتباع صوت شيطانها لن ينفعها الندم الآن، جربت جميع الطرائق التي خطرت لها ليعفوَ عنها الحاج، لكن النّار التي تلتهم قلب الحاج سالم أقوى من أن تصْفح عنها، فأطلق رصاصة دفعتها بعيدًا وألقت بجسمها طريحة الأرض، شعر الحاج سالم بالخزي والعار ولم يعرف سبيلًا لملاقاة الناس من جديد، ماذا سيقول عنهم النّاس؟ سيكنون كالعلكة في أفواههم وستلحقهم الفضيحة أينما حلّو، فقرر الانتحار بإطلاق رصاصة في رأسه، أضحى منزل التلة مسبح دماءً ليتحول من المنزل المخيف إلى بيت الموتى!

رماد الذكريات

احتشدت السحب السوداء في صفحة السّماء وقصف الرّعد ولمع البرق، ارتجفت الأشجار ارتجافًا عنيفًا وتراقصت كأنها فتيات باليه، تكاد رؤوسها تلاصق الأرض فكأنها تسجد لخالقها وتستجديه الرحمة، زمجرة العاصفة تخترق الخشب والإسمنت وتصل إلى أذنهما قرقعة شديدة فيحسان برأسيمها كأنه ينفلق، استقيظا على صوت الرعد المدوي الذي يضرب بقسوة أديم الأرض، لا يدريان ما الذي يحصل أو ما الذي يجري حاول أحدهما التّحرك دون جدوى، فحتى أقدامهما ربطت بسلسلة معدنية تمنعهما من الحركة، كانت أذهنهما مشوّشة للغاية لا يتذكران سبب وجودهما أو صلة القرابة بينهما، إنهما غريبان تمامًا عن بعضهما تحدّث أحدهما قائلًا:

- أتدري ما سبب سجننا هنا؟

حدّق في وجهه البائس وقال بامتعاض:

- أنت أحمق أليس كذلك؟ لا لست أدري كل ما أتذكره هو استيقاظي على صوت العاصفة!

ضحك الرّجل ثم تنهّد وقال:

- نعم أنت على حق، أنا أدعى خالد أعمل في البرمجة ماذا عنك؟

تعجّب الآخر من هذا الرّجل، كيف له أن يكون بارد الأعصاب بهذا الشّكل وهم في هذا المأزق، تجنّب الرّد عليه وراح يحاول بكل قوّة تحطيم قيوده لكن أفعاله كانت كمن يحاول التكلم تحت الماء لا طائل منها، ضحك خالد مجددّا وبوتيرة أعلى وأقوى من التي قبلها، وأردف:

- أنت تضحكني بشدة يا رجل، أظننا الآن تيقنا من الأحمق

كتب الرّجل في مخيّلته أن هذا الشخص مجنون بالكامل، وعليه مجاراته ليجد حلّا لهذه المحنة فاسترسل قائلًا:

- أنا زيد أعمل في الصّحافة، ركّز معي إن أردنا الخروج علينا العمل معًا يبدو أن المنزل مهجور لاحظت ذلك عندما أسرفت النظر في السقف والجدران، وأحسست بوقع أقدام مجاورة لذا فهناك احتمال كبيرٌ أننا مراقبان..

عندها قاطعه خالد بحمحمته مردفًا:

- لا أعتقد أنه سيمكننا الخروج، ألم تر هذه السلاسل؟ كيف سنقطعها أم إننا سنغني لها تهويدة ما قبل النّوم؟

ثم انفجر ضاحكًا كأنه يشاهد فيلما كوميديا أو ما شابه، أثار حنق زيد وجعل دمه يفور كحمم بركانية فصرخ في وجهه:

- ما بالك يا رجل؟ ألا ترى ما نحن فيه؟ أنت تقودني للجنون! أرجوك علينا التفكير في سبيل للهروب.

وتابع محدثًّا:

- إنّ من وضعنا هنا، مؤكد أنه ذات الشّخص فكّر معي مَن مِن أعدائك يحقد عليك لدرجة يتمنى فيها رؤيتك ميتًا، أعطني أسماء حتى نجد الشخص المشترك بيننا..

شرعَا في سرد الأسماء واحدًا تلو الآخر، حتى وصلَا إلى الشخص ذاته السيد جمال، عمّ الصمت وساد السكون لبرهة كسر هذا الحاجز دخول رجلٍ غريب، يمشي بثقة واضعًا يديه خلف ظهره، مشوّه وجهه بفعل حريق، يرتدي بذلة رسمية وعدسة في عينه اليسرى، صُدما الرّجلان فهو ليس

السيد جمال وهما لم يعرفاه قط، وضع كرسيًّا في منتصف الغرفة ثم جلس عليه وهو في سكينة مخيفةٍ، وتكلّم قائلًا:

- غريب أيها السيدان، كيف لم تتعرّفا عليّ؟! بهذه السّرعة نسيتماني؟

قهقه قليلًا ثم أكمل:

- أوتدريان؟ بعد التفكير في الأمر ليس غريبا، فالنّاس تتذكّر أعدائها من يحقد عليها وينوي لها الشّر ولا تتذكر لمن ظلمتهم وكوتهم ودعست على كرامتهم! دعاني أعرفكما بنفسي..

أنا لستُ شخصًا مهما إنسان عادي حوّلتما حياته إلى سعير، ذراني أنعش ذاكرتكما..

أتتذكران حريق مركز المدينة التّجاري؟ بالطبع تفعلان فلم تمض على الحادثة إلا أشهر معدودة، سأدخل في لبّ الموضوع عندما شبت النار فجأة في الدّور الأرضي، وأخذت تلتهم كل ما في طريقها، هلع الناس وتركوا ما بين أيديهم تعطل المصعد وتوجه الجميع إلى السّلالم، كنت عالقًا استغيثكما وأصيح بلمىء صوتي لكنكما أبيتما مساعدتي وتركتماني كي أحترق وأتعفّن تحت الأنقاض، لكن ها أنا ذا، سأسقيكما من الكأس الذي سقيتماني منه، سأكون كابوسكما المرعب وأنتما في الجحيم.

أخذ غالونا من البنزين وسكبه في الأرجاء، كان زيد ينعر بكل ما أوتي من قوّة بينما خالد يكاد يموت من فرط الضّحك، استأذن الرّجل بعدما أشعل النار في المنزل وظل متسمّرا على مقربة من النافذة، أحمى سيجارته وظل يشاهد اللهب يلتهما جلدهما وينصت إلى صراخهما كأنها معزوفة بيتهوفن، رغم العاصفة إلا النار لم تفشل في حرق المنزل وما يحتويه، لم يتمكن

رجال الأطفاء من تدارك الموقف بسبب سوء الأحوال الجوية كان وصولهم كعدمه، فقد أكلت النار ما أكلت ولم تذره إلا رماد ذكريات.

قصر أربع حمامات

فُتِحَ باب قفص لأربع حمامات، غادرت وانطلقت كلٌّ منها نحو حلمها الزنبقي تركت ذات الريش الأبيض الحمامات الأربعة تُحَلّقُ لوحدها ترفرفُ بجناحيها تغمرها السعادة لأنها سترى العالم بعينيها سترى البحر الذي لطالما سمعت عنه القصص، وترى قمم الجبال وتحيى كما تشاء فإذ بها تصطدم بزجاج طائرة كانت تريد الهبوط وترسم دمائها لوحة كلوحة العشاء الأخير.

الآن ذات الريش الأسود تترك البقية و تغمز لهم بطرفها تجوب الأفق الرّحبَ تقفُ على حوائطِ المنازل هنيهة و تتابع التحليقَ، تشعر كأنها تنفّست للتو فلم تكن مقتنعة بالهواء الذي يصلها في القفص، ثم دون سابق إنذارٍ يصطادها ولدٌ مع عمّه في فنائهم فيُبترُ جناحها لتسقط كما لو أنها جثة هامدة لا تحرك ساكنةً وتسقط مع أحلامها التي لم تلبث دقائق وانغرست في باطن الأرض.

أما ذاتُ الريش البنّي فانطلقت كالسّهم متجهة نحو صومعة مسجد شاهقة تراقُب سرب العصافير المهاجرة تتمنى لو أنها كانت عصفوراً كي تشدو ألحاناً فوقَ أحد الأغصان، وتترنم في كل صباح أمام نوافذ العشّاق نزلت من فوقها وحطّت على الأرضِ برواقٍ وهي لا تزال غارقة في التّفكير، متناسية تمامًا للفضاء الذي حولها، فإذ بقطة شارذةٍ تقفز نحوها لتقطع حبلَ أفكارها وتمزق ريشها البهي وتستمعُ بلحمها الطّري دون أن تترك فيها شيئًا

جزعت وارتعبت ذات الريشِ الرّمادي فلا أحدَ من صديقاتها ظلت على قيدِ الحياةِ، قرّرت العودةَ للقفصِ تستطيع فعلَ ما تشاءُ فيه، واستنبطت

ألا فوارق بينهم، هي حبيسة قفص صغير رغم ذلك لا تزال قادرة على الهديل، لكنهم سجناء قفص كبير، لم يكن بالقفصِ الصغيرِ الذي تقطعُ أنفاسكَ فيهِ بل أشبهَ بقصرٍ صُنع خصيصاً لأربعِ حماماتٍ.

شتات الفقر

تشتت شمل عائلتنا من فرط القحط والحاجة، أكننا لبعضنا الحقد لعدم مقدرة أحدنا على تغيير وضعنا المزري كنا أشبه بكلاب تنبح على بعضها، نعيش في منزل صغير عفى عنه الزّمن من شدة قدمه، بهتت ألوانه وتقشرت حيطانه، تصدّع سقفه واهدودرت منه قطرات المطر فسقت جفاف هذا المنزل، كان لوالدي محلّ ألبان صغير لا يجني منه سوى القليل الذي لا كيفي لسد رمقنا، بينما أعمل سائق أجرة بسيارة اشتريتها بالأقساط وزد على ذلك الضرائب التي تفرضها دولتنا العزيزة فما أجنيه يذهب هباءً منثورًا كحبات التراب حينما تذروها الرياح، أخي سالم يدرس في كلية الهندسة التي اتخذها حجّةً عن العمل كلما فاتحته بالموضوع أنهاه بجملة "لا أستطيع العمل والدّراسة في آن واحد" المسكين لا يعلم أن ما يدرسه مجرد ترهات لن تفيده مطلقًا عقب تخرجه، أما أمّي فهي طريحة الفراش تأن وتتأوه من فرط الألم، ترى الحياة من وراء نقاب الموت، آلام الصداع الشديد تقوى على رأسها، كلما حاولت الحركة شعرت بمطارق تدق على رأسها، وخفق قلبها بشدة وخانتها ذراعها وشعرت بالوهن، وبجاذبية ثقيلة تشدها إلى الأرض، اضطرت أختي إلى ترك مقاعد المدرسة لمساندة أمي وشد عضدها فتسقيها وتأكلها وتدخلها الحمام وتعتني بأمورها، وذات عشاءٍ طفح بي الكيل وبلغ السيل الزبى، لم أعد احتمل أكل فتات الخبز المخلوط مع المرق، ذقت ذرعًا منه ومن الحياة المقرفة التي نعيشها نهضت منتفضًا مشتعلًا بشرارة الغضب مكبكبًا صحن الفتات رأسًا على عقبٍ، اكفهرّ وجه أبي إثر ما فعلت، وصاح سالم كأنه هدير نهر في فيضانه لكنني خرجت غير مبالٍ بما يثرثر، وقفت في الشرفة أحميت سيجارتي ونفثتُ أدخنة الهموم تمنيت لو أن مشاكلنا تختفي كما يختفي هذا الدُّخان، فننعم بعيش رغيد

وغرقت في صدى هذه الأحلام قطعت جريانها صوت أختي سلمى وهي تدخل الشرفة مأنبةً:

- نوح أعلم ان الثقل الذي على كاهلك جعلك تتصرف هكذا، لكن يجب عليك الاعتذار من أبي!

رميتُ عقب السيجارة وأطفأتها بقدمي واستطردت:

- أوتعلمين أنني يداس علي كمثَل هذه السيجارة؟

تنهدت حتى ظننتها تنفث فتات صدرها ثم قالت:

- لستَ وحدك من يكد ويعاني، إن الإنسان لا يدرك عظمة ما بين يديه حتى تختفي، فإن اختفت أدرك حينها أنه في نعمة لا غنى عنها وأنه لم يكن سوى جاحدٍ يستحق ما آل إليه.

ضحكتُ استهزاءً مما قالت وأردفت:

- وهل هناك أسوء من الذي نحن فيه؟! استفيقي يا أختاه نحن نرقص في الجحيم.

أطبق الظلام على الكون وفرد ذراعيه في الأفق، اصطفت النّجوم في صفحة السّماء كعروسة في انتظار أن تُزف، وحضر القمر ليواسي جروحي الغائرة بحنين ضوئه وبريقه، لم يكحل النوم جفوني تلك الليلة في كل جانب أتقلب فيه بأن وجعًا، كأنه يخبرني "انتبه هناك شيء سيء سيحدث" بقيت مستيقظًا أحدق في السقف المتهالك كهلاك روحي، وأتساءل ما هي حياة الترف والغنى؟ مؤكد من أنها مجرد استلقاء على الأريكة ووضع قدم فوق الأخرى ومدهما على الطاولة، ومشاهدة التلفاز وتناول ما لذ وطاب من أشهى المأكولات، بينما نحن نهيم في الفقر المدقع، طلع الفجر واختلط بياضه بسواد الليل ثم انتشر حتى أضاء الآفاق

كلها، وتساقطت قطرات الندى برواق من على الأوراق، ترجلت من السرير غاسلًا وجهي مديرًا محرك السيّارة لأجوب الطرقات من أجل العمل، أوقفني زبونٌ طلب منّي توصيله خارج المدينة، احتل الاستغراب ملامحي وارتفع حاجبي عن الآخر ووجدت نفسي أسأله:

-هل لديك أقارب خارج المدينة؟

فأجابني في تعجّب:

أولم تسمتع إلى الأخبار؟ أزفت الحرب يا صديقي، إنها تزحف في اتجاه بلدتنا.

لم أدري بها إلا في تلك اللحظة، حاول أبي إقناعي أنا وسالم لكننا أبينا واحتججنا فليس لدينا مكان لنأوي إليه ولا يمكننا ترك عملنا ودراستنا، وذات صباح اختبئت فيه الشمس خلف الغيوم وتوارت أشعتها، أثناء خروجي للعمل بينما أقود سيارتي بهدوء أنصت منطربًا للأغاني فجأة وعلى حين غرة فراق دقائق من مغادرتي سمعت ضجيجًا مدويًّا بدا لي كأنه صوت طائرة قريبة، أرسلت نظري للسماء لأصدم بسرب من الطائرات الحربية، ضغطت الفرامل على الفور وأدرت السيارة عائدًا إلى المنزل أحاول الاتصال بأخي لكنه لا يجيب، قدت السيارة بسرعتها القصوى متجاوزًا كل من أمامي فقط لأصل في الوقت المناسب، بدأت أرى أعمدة المنازل تهتز كأنها ترتجف خوفًا، تهتز تمامًا كاهتزاز قدمي اللتان لم أعد أشعر بهما من فرط رعبي، وبينما أنا في طريقي وعندما كدت أن أصل سمعت انفجارًا مدويًّا دك الأرض، قصفت تلك الطائرات اللعينة بقعة منزلنا وما جاورها فحوّلتها إلى ركام ورمادٍ انتشر في الهواء، نسفت كل ما طريقها فأحالته إلى غبار، وقفت متسمرًّا لا أقوى على الحراك من هول ما جرى، كنت أرى سلمى تبكي وسالم يجر أمي على كرسيها ويسحب سلمى التي أبت التّحرك،

ركضت إليهم لا أقوى على استجماع أنفاسي اللاهثة، حاولت سلمى التكلّم لكن عبرتها كانت تخنقها كأنها تمنعها من الكلام، والسؤال الوحيد الذي طرق فكري حينها "أين أبي؟" وقبل أن ألفظه أجابني سالم كأنه يقرأ تفكيري، علق أبي في الدّاخل ولم يستطع الهروب فطلب منا المغادرة ونذره ليموت وحده، كانت تلك الكلمات كسيوف اخترقت جسمي بأكمله، اغرورقت عيناي بالدموع ثم انهمرت لتحرقني وتترك بي غُصّةً في حلقي، بكيت كطفل رضيعٍ ولم أتمكن من تظاهر القوة أمام أمي أو أخوتي الصّغار، شعرت في تلك اللحظة بالصغر والضّعف، كان الذنب ينهشني وينخر عظامي كما كان يفعل الجوع بمعدتي بل أسوء، تتغلغل الانكسار في روحي، زعزع نفسي، وأرداني طريح الأرض، سحب أحلامي وقتل آمالي، ونذرني كمثل ورقة ضائعة حملتها الرياح. أتمنى لو يعود الزمن لليلة الماضية لأقبّل رأس أبي وأعتذر، وأحنو على يديه وأرضى بما كتبه الله لنا، مستعدٌ لأكل الجيفة لأسترد حياتي التي كنت أتقرف منها، أضحيت أعض أصابعي ندمًا في كل لحظة، لكن بما سيفيدني الندم؟